

طلب المغفرة ضرورة للمؤمن

أخى :

إن حياة الإنسان أحب شيء لديه ، ولا شيء سواها أحب إليه منها ، سواء أكانت له أم عليه حالا ومآلا ، فإنه بمقتضى طبيعته يؤثر الحياة على الموت حتى ولو كان الموت وعداً له من الله ليدخله جنة الخلد يتمتع فيها كيف يشاء . قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وهذه الحياة حاصلة له من الله بغير سبب منه ، ولا قدرة له فى الحصول عليها ، والاكتساب لها حيث إنَّها من الله وحده يرزقها من يشاء ويمنعها من يشاء .

فبالحياة المطلقة المضافة إليه سبحانه وجود الإنسان وقدرته علم ، الحركة فيه وله وعليه . ومن تعقل هذا وتدبره بالعقل - الذى أكرمه الله به وميزه على سائر الأحياء من المخلوقات مثله - أحسَّ من أعماق قلبه مدى فضل الله عليه ونعمه إليه . وفى هذه الحالة تتملكه شريعة العدل فيعطى ربه حقه من الحمد والشكر على نعمة الحياة التى لا مثيل لها فى النعم والأفضال حيث لا نعمة أكبر منها ، ولا فضل أعظم منها ؛ لأنها أم النعم ومحل النعم الأخرى وموضعها .

وقد علمت أخى أن نعمة الحياة فى ضرورتها وآثارها ودقتها وغفلة الإنسان عن شهودها ، وذكرها بالنسبة للنعم الأخرى التى يتطلع إليها أشبه بنعمة الروح بالنسبة للبدن ، ولما كان لنعمة الحياة صفة الجريان والاستمرار فالنسيان لها والغفلة عنها دأب الإنسان وطريقته . وسبب هذا استدامة الحياة للإنسان بلا كسب منه ولا تسبب من جانبه مع علمه ويقينه بعظمة هذه النعمة وأنها من الله وحده ولا فضل لمخلوق عليه . وهذا ما يسميه أهل العلم بالله ويصفونه بنعمة الإيجاد . أما النعم الأخرى التى لا حصر لها فهى نعمة الإمداد . قال تعالى فى وصف الإنسان الغافل عن هذا فلا يذكره ولا يشكره ﴿ قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾

الآيات، هذا فيما يتعلق بالحياة الدنيا المحدودة الأجل . فمن آمن بالله واليوم الآخر أخذ طريقه إليها بكل ما ذكر في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ . شاكراً ربه على كل ما أنعم به عليه إمداداً وإيجاداً ، وعلى ما وعد به من نعمتى الإيجاد والإمداد للمؤمنين من العباد فى الدار الآخرة التى إليها مصير الخلق ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ .

وللعلم أذكر لإخوانى أن شكر الله وذكره من جانب الإنسان مهما بلغ من درجات الإيمان لا يتناسب إطلاقاً مع نعم الله وأفضاله . ولأنه سبحانه وتعالى يعلم ذلك منه فرض عليه ما فرض من الأوامر والنواهى ليكون على صلة به امتثالاً واجتناباً . فإذا قام العبد بذلك رغبة ورهبة وخوفاً وطمعاً غفر له جهله به وغفلته عن ذكره وشكره فيما أنعم به عليه لأنه بمقتضى بشريته وطبيعته وحياته فى عالم الشهادة لا يرى إلا نفسه ومن على شاكلته من المخلوقات الأمر الذى يحجبه عن مشاهدة صفات الله فى كل ما هو كائن ، ولأجل هذا فرض على المؤمنين طلب المغفرة منه ، كما فرض عليهم الطاعة . وبهذا نعلم أن الطاعة إن لم تكن مصحوبة بطلب المغفرة فهى ليست بالطاعة التى فرضها الله على عباده مهما كانت مظهرها وصورة لأن طلب المغفرة من العبد من مشتملات الطاعة التى أمرنا الله بها ، ولذلك جاء طلب المغفرة مقترناً بالطاعة . فالسمع يقتضى الطاعة . والطاعة تقتضى الفعل والترك وبالفعل يتقرب العبد إلى ربه . وبالترك يتعد عن نفسه . وعن كل ما يعوق طريقه إلى الله . وبهذا النوع من السلوك يحصل للمؤمن العلم بأسمائه والمعرفة بصفاته . ومتى علم وعرف وقف عند حده . ومن وقف عند حده لجأ إلى ربه بكل ما عنده من قوة وجهد . وعليه أقول لإخوانى : إنه لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها . ولم يتجاوزها إلى ما ليس له ، ولم يتعد طوره ، ولم يقل هذا لى . وتيقن أنه لله ومن الله وبالله . فهو المان به ابتداء بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه فالحمد كله لله أولاً وآخرأ : فإذا تحقق العبد بذلك أدرك معنى قوله تعالى : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ وفى هذه الحالة يتجرد من شهود أعماله وأفعاله لما تيقن وتبين له من مراده تعالى فى التكليف عليه .

وبهذا نعلم أن الطاعة له سبحانه وتعالى تقرب العبد من ربه ، وبالقرب منه يتكشّف له من أمر الحياة ما كان محجوباً عنه . فيرى بنور الله ما لم يره بنور نفسه وعقله وصفاته قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ .

أخى :

عليك أن تعلم أن الذين يعيشون في الدنيا بصفاتهم الإنسانية محجوبون عن مشاهدة صفات الله التي من آثارها وأفعالها هذه الحياة التي يحبونها والصفات التي يشعرون بها ولتعلم ويعلم إخواني أن ما كلفنا الله به من الطاعات والعبادات مقصود بهذا التكليف التعرف عليه سبحانه . فإذا حصلت المعرفة توسلنا إليه عز وجل بكل ما هو منا ليغفر لنا جهلنا به وغرورنا بأنفسنا التي لا حول لها ولا قوة في كل ما نتصوره أنه منا . فمن نظر إلى ما هو من الله إليه خلقاً وإيجاداً وإنعاماً لا يرى لغيره عملاً ولا فعلاً . ﴿ وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ فإذا كان هناك ما يصح أن ينسبه الإنسان إلى نفسه أو غيره من المخلوقات ظاهراً فالإيمان به سبحانه على ضوء المعرفة المشار إليه يقتضى من العبد أن يرى كل ما هو منه توبة واستغفاراً لأنه مدين لله بحياته ووجوده وتوفيقه في كل ما هو فيه . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ وبهذا نعلم أن الله تبارك وتعالى أكرمنا بكل ما فرض علينا ودعانا إليه من صالحات الأعمال ليغفر لنا ذنوبنا وآثامنا فمن عرف الله عز وجل بهذا الكيف لا يمتن على خالقه بعمل ولا قول ولا فعل .

ومن لم يعرفه بهذا الكيف فإنه لا يرى إلا ما هو منه ولو قليلاً . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ومن الجهل والغفلة . والغرور . فإننا لله ابتداءً وإليه انتهاءً وإليه راجعون نهاية . فمن علم الحق الذى لا بد منه سارع

إلى طلب المغفرة من ربه قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ ولما كان معلوماً لدينا بأن الجنة من الله وحده ، ومن خلقه وحده فكذلك الشأن في المغفرة وهذا وجه الاتصال في الآية بين المغفرة والجنة . فالمؤمن كما يطلب الجنة من الله فضلاً ورحمة . كذلك يطلب المغفرة منه فضلاً ورحمة .

أخى :

إن الإنسان بحكم طبيعته ، ومقتضى بشريته قد ينسى نعمة الخلق ، والإيجاد . ولذلك جاء تكليف الله بذكر نعمة الإمداد والإيجاد لأنها لا تنقطع أبداً حيث هي مجددة باستمرار . قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِّن نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ ﴾ فمن لم يعرف الله بالنعم الجارية عليه بصفة مستمرة وصور مختلفة متجددة فإنه لا يمكن أن يعرفه بالنعم السالفة ، والنعم التي وعده الله بها . وقد علمت أن الإيمان بالله على ضوء ما أنزل وأرسل هو الطريق إلى معرفة النعم السالفة ، والنعم اللاحقة ، والنعم الحاضرة .

ولما كان لا حصر لنعمه سبحانه ولا يمكن الإحصاء لها . فقد أكرمنا عز وجل بتيسير الطريق إلى معرفة نعمه قال تعالى : ﴿ لِّئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ولا نهاية لهذه الزيادة . فمن شكره على نعمه بصَّره بنعمة هو فيها قد يكون جاهلاً بها ولها ، وأعطاه نعمة أخرى زيادة على النعمة التي هو فيها . وهكذا إلى ما لا نهاية حتى يلقاه بنعيم الجنة ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ومن هذا نعلم أن من شكر الله على نعم الحياة الدنيا مُمْتَنِلاً وأوامره ومجتنباً نواهيه زاده الله بنعم الآخرة .

ولأن الأمر كذلك فالشيطان يعمل جهده لمنع المؤمن من شكر الله في الدنيا . قال تعالى حاكياً عنه ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ وقال عز وجل ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ وقال سبحانه : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .
